مذهب الملكات العقلية

وأثره فى التربية والتعليم

للدكتور محمد مظهر سعيد

أستاذ علم النفس بمعهد التربية وكلية أصول الدين

وصلت فى البحث السابق(١) عن أثر مذهب الملكات العقلية فى التربية، وكيف اتخذه الفلاسفة أساساً للتعليم إلى جماعة الانسانيين ؛ وسأتناول الآن آراء المربى الألمانى المجتهد (فروبل) صاحب الطريقة المعروفة لتعليم الاطفال، والتى يصح أن يقال عنها، فى شىء من التساهل، إنها أول طريقة عملية، بنيت على الملاحظات الشخصية والتجارب العملية ، لا على النظريات الفلسفية وحدها .

نظر (فروبل) إلى التربية على وجه العموم، وإلى العلوم التى تهيىء الناشئة للنوع الذى يرتاح إليه من التربية والتعليم؛ نظرة فلسفية مشبعة بروح الاخلاص للدين، فجعل العلوم وسيلة لادراك مبلغ قدرة الخالق وتفهم أسرار الطبيعة ، ومن ثم وسيلة لمعرفة الله والتقرب إليه ، فهو يقول فى الرياضيات: « يحتاج الانسان إلى نقطة ثابتة ودليل أمين يرشدانه لدراسة الارتباط الثابت بين مظاهر الطبيعة المتغيرة ؛ ولا يكون هذا بغير الرياضيات التى تبدو للعين المدققة كأنها المنبع الذى تتفرع منه كل هذه المظاهر والقوانين التى تتحكم فيها ، وهى بعبارة أخرى كما يظهر من أصل اشتقاق اسمها اليونانى «علم الحفظ» وهى الوسيط بين الانسان والطبيعة ، بين الفكر المتجرد والاحساس المادى ، بين العلم الباطنى والعلم الخارجى الظاهر ؛ ولذلك كانت ولن تزال دائما على رأس العلوم ، وهى كذلك من الصفات اللازمة للدين الصحيح ؛ فالمسيحية وحدها هى التى تظهرها للانسان فى ثوبها الحقيقى،وتضعها فى مكانها اللائق بها ، والمسيحى هو وحده الذى يستطيع أن يقدرها حق قدرها، لأنه يرى وحدة الأله الواحد الأحد فى كل مظاهر الطبيعة المتغيرة » (٢)

وبعد أن يسترسل فى هذا الأسلوب الدينى يعزز حكمه عليها بقوله : « فالرياضة إذن تتوسط بين العلوم والمعارف وتوحدها وتولدها ، وليست الرياضة بعلم جامد ولامادة محدودة ، وليست بمجموعة صيغ منفردة ، ولا حقائق متفرقة عثر الانسان على كل واحدة منها منفردة بمحض الصدفة؛ ولكنها وحدة حية تتجدد باستمرار، وتتبع تطور العقل البشرى،وتتمشى مع نموه بالنسبة للوحدة والتعدد ، ومن ناحية التأمل والتبصر؛ ولكنها مع هذا ليست من الحياة القائمة

(١) راجع العدد العاشر من «المعرفة» (٢) كتاب تربية الانسان طبعة أبلتون.

أو شيئاً مستمدا منها ، وإنما هى الحياة بذاتها »(١)

أما عن اللغة فقد تحايل تحايلا غريبا بقوله: « إن اللغة هى المظهر الخارجى الايجابى الفعال للمشاعر الباطنة » مدللا على هذا بأن أصل كلمة الكلام (SPRECHEN) مشتقة من كلمتى (S—PRECHEN) أى تجزء الذات وانفصالها وإظهار الخفى عن طريق الظاهر ، ولم يقل بهذا أحد على الاطلاق من علماء اشتقاق اللغة الألمانية .

ثم يستمر فى قوله : « كما أن الطبيعة هى مظهر العقل الالهى ، فكذلك اللغة هى مظهر العقل الانسانى ، بل هى مظهر الانسان والطبيعة وروح الله مجتمعة معاً ، ولها صفات العلوم الرياضية والطبيعية من حيث الحركة والحياة ؛ فهى فى حروفها وسواكنها وكلماتها تكشف الصفات والعلاقات الأساسية بين الطبيعة والروح ، كذلك إخراج الاصوات يتبع قوانين محدودة ثابتة: رياضية وفسيولوجية وفيزيقية وسيكولوجية » (٢)

ثم هو يعتبر اللغات: الالمانية، واليونانية، واللاتينية ، بمثابة الروح والحياة والبدن (٣) . وهو فى هذا أشد مايكون تعصبا للغته الأصلية ؛ ويقول عن الانجدية قولا خياليا غريباً ، منها أنها توصل الانسان إلى أعلى درجات الكمال الارضى وأكملها ، وعن الكتابة: إنها أسمى مظهر للشعور الحر الفعال . (٤)

ويرتاح (فروبل) إلى تنبؤه هذه، فيأبى إلا أن يحشر الفنون فى العلوم السابقة حشراً فيقول: «إنها تمس الرياضيات من ناحية واللغة من ناحية ثانية ثم الدين من ناحية أخرى» (٥) ؛ ولكنه ينتبه إلى تعذر شرح هذا الارتباط بيداجوجيا ، أو الطريق التى يسلكها المعلم لايجاد هذا الربط، أو الفائدة التى يجنيها المتعلم منها ، فيقول فى الصفحة التالية: « ولكن مع هذا كله — أى الارتباط الثابت فى نظره — فان الفنون يجب أن تعلم لذاتها » ثم يلخص كلامه كله فى هذا الصدد بقوله : « لما كان من الضرورى أن يكشف الله سر وجوده للناس كشفا كاملا لا لبس فيه ولا غموض ، كان لزاما أن يكون هذا بالكيفية الثلاثية عن طريق الرياضة واللغة والفنون، فتكون هذه الثلاث وحدة كاملة، تتطلب معرفة إحداها معرفة الأخرى » .

فأنت ترى من كل هذا أنه أخرج العلوم عن معناها الحقيقى وفائدتها العملية، ونظر لها من ناحية الدين الممثل لطبيعة الله، والفكر الممثل لطبيعة العقل البشرى، والنظام الممثل لطبيعة الكائنات .

المدرسة الانجليزية :

وانتقل المذهب من المانيا إلى انجلترا فتأثر به فلاسفتهم ورجال التربية فيهم ، فتجد (جون استورم) يبالغ فى قيمة اللغتين اليونانية واللاتينية أشد مبالغة؛ و (آشام) البيداجوجى

(١) صحيفة ١٠٤ و ١٠٦ (٢) صحيفة ٢١١ (٣) صحيفة ٢١٧ (٤) صحيفة ٢٢٥ (٥) صحيفة ٢٢٦

يضع اليونانية فوق جميع العلوم ويشير بجعلها أساساً للتعليم فى جميع المدارس،حتى (ملتون) العظيم يصرح فى خطابه إلى (صمويل هارتليب) بأنه يرى التعليم مستحيلا بدونها، واقتنع اساتذة كلية (أوين) بهذا الرأى ؛ فنفذوه فى مدارسهم وساروا عليه مدة طويلة .

وكذلك نحا الفيلسوف العظيم (جون لوك) نحو (منتاجيو) ونادى بتفضيل اللاتينية وجعلها أساساً عاما للتعليم ، وأشار بأن يعطى التلاميذ فى كل يوم شيئاً من اللاتينية يحفظونه عن ظهر قلب، ولو لم يفهموا معناه ، حتى تقوى فيهم الاراده والذكاء والقدرة على حل المشكلات (١) .

حتى الفيلسوف (هربرت سبنسر) لم يسلم من الوقوع فى هذا الخطأ ، فقد صرح فى الكثير من آرائه ومؤلفاته عن التربية بأن دراسة بعض العلوم تقوى العقل على وجه الاجمال وتصقل ملكات النفس .

الجزويت :

اقتبس الجزويت فى فرنسا تعاليم « ستورم » ولكنهم شوهوها وغالوا فى تطبيقها ، فاقتصروا على دراسة اللاتينية وما يتعلق بها فى السنين الثلاث الأولى من مدارسهم كعلم أساسى، وزودوها بشىء قليل من اليونانية واللاهوت؛ وكان عمادهم فى التعليم: الذاكرة الصماء،والحفظ عن ظهر قلب ، أما باقى العلوم فكانت اختيارية يتعلمها الطلبة من تلقاء أنفسهم فى أوقات فراغهم وأجازاتهم السنوية لتقوية الملاحظة ليس غير .

القرن التاسع عشر :

جاء القرن التاسع عشر بنزعته المتطرفة للتجديد والتبديل، وإعادة النظر فى كل النظم والتعاليم القديمة، فتقمص مذهب الملكات من جديد، بعد أن كادت تقضى عليه حملات الفلاسفة أنفسهم، والمحدثين من علماء النفس التجريبى، وتشبث أنصارهم بمذهب تهذيب العقل، ورأوا أن يكسبوا كلامهم صبغة علمية بيداجوجية فزعموا أن القدرة التى يكسبها العقل بمرانه على علم من العلوم أو عمل عقلى،خاص تنتقل إلى العلوم أو القوى العقلية الأخرى،لأن العقل بهذا المران الخاص يكتسب المرونة ، فيعمم ما يكتسبه من قوة ونشاط فى ناحية خاصة على باقى النواحى . ويلخص العالم الأمريكى (ثورن دايك) مزاعمه فى النقط الآتية :-

١ - إن التحسن الناتج من تمرين العقل،من تكرار عمل معين ، ينتقل إلى أعمال أخرى قد تخالف نوع العمل الأول الذى تمرن عليه .

٢ - إن التحسن الناتج من دراسة علوم معينة تقوى الملكات لدرجة كبيرة الأثر .

٣ - إن للعلوم جميعها أثرا تهذيبياً، وإن اختلفت القيم النسبية لهذه الآثار اختلافا بينا ؛ ولما

(١) أفكار في التربية .تحرير كويك.طبعة كمبردج سنة ١٨٨٦
JOHN LOCKE—THOUGHTS ON EDUCATION

كانت الرياضيات واللغات هى أقوى العلوم فى نظرهم ، فقد حددوا لكل علم قيمة تهذيبية خاصة منسوبة إلى هاتين المجموعتين، تبين نسبة ماتحدثه هذه العلوم من تحسين القوى العقلية العامة إلى الرياضيات واللغات . (١)

ونكتفى فى هذا الصدد بالجدول الآتى :

الحساب ومسك الدفاتر ٢٫٠٩ ـ الكيمياء والطبيعة والعلوم العامة ٢٫٠٦ ـ الهندسة والجبر وحساب المثلثات ٢٫٠٣ ـ اللاتينى والفرنسى ١٫٠٦ ـ التربية البدنية ٠٫٠٧ ـ التاريخ والموسيقى والرسم صفر .

ونشط رجال علم النفس التجريبى لبحث هذه المزاعم بحثا عمليا بحتا ، فوجد بعض المتقدمين منهم شيئا من الصحة ، فتجد أن (كوكس) مثلا استنتج من بحثه الذى قدمه للدكتوراه أن تقدم طلبة السنة الأولى الذين يدرسون اللاتينية فى الهجاء الانجليزى بلغ مرة ونصف مرة من تقدم الآخرين المساويين لهم، من الذين لا يدرسون اللاتينية ، وأنه من السهل أن ترتفع هذه النسبة إلى ثلاث مرات .

كذلك وجد (نيومان) و (أيبرت) من النتائج ماحملهما على القول بأن الذاكرة تقوى بتمرينها على أى علم من العلوم وخصوصا باللغات والعلوم البحتة ، أما الرياضة فانها تقوى الذكاء، لأن المنطق الرياضى المكتسب من هذه الناحية ينتقل إلى كل النواحى الأخرى ، وكأن (نيومان) قد اطمأن إلى نتائجه هذه، فانتقل بمذهب الملكات من دائرة التفكير إلى دائرة الأرادة فقال: إن العلوم بما فيها التربية البدنية لاتقوى العقل فقط، ولكنها تقوى الانتباه وتخلق الأرادة ؛ ولكن الثقة بنتائج هذه المباحث المتقدمة ضعيفة إلى حد التشكك فيها بالنسبة لقلة عدد الاشخاص الذين أجروا عليها تجاريبهم، والطرق الرياضية التى استخدموها للوصول إلى هذه النتائج ، أما نتائج المعاصرين لهم والمتأخرين عنهم، التى أجريت فيها التجارب على عدد كبير من الناس، واستخدمت فيها الطرق الرياضية الصحيحة، فتكاد تكون قاطعة لاتقبل الشك، وكلها تقضى ببطلان هذه المزاعم، فقد وجد (كيربى) مثلا أن دراسة اللاتينية لاتؤثر أى تأثير فى تعلم اللغة الفرنسية، وهى لغة اللاتينية، أكثر من الانجليزية. وكذلك وجد (بروكلر) أن تقوية المدارك والعادات المنظمة والتفكير الصحيح وغير ذلك، مما ينسب لمجرد دراسة اللاتينية، يرجع إلى عوامل أخرى لا دخل للاتينية فيها.

وغير هذا مئات من التجارب التى قام بها العلماء المجتهدون فى كل زعم من مزاعم هذا المبدأ، أو فى كل ناحية قد يكون له دخل فيها؛ وعسانا نوفق إلى تناول هذا الموضوع فى فرصة أخرى ، ولكن يكفى أن نقرر هنا أن نظرتنا الآن إلى العلوم المدرسية تختلف اختلافاً كلياً

[1] THORNDIKE-MENTAL DISCIPLINE— J.ED.PSY.15-1424-P.1-22,83-89.

عن نظرة السابقين ، فلكل علم قيمته النفعية، وقيمته التثقيفية العامة، كما أن له قيمته التهذيبية، ولذلك لا ينبغي أن يدرس علم في مدرسة، أو يدرج في منهج نوع معين من التعليم، لمجرد اعتقادنا أو اقتناعنا، عن طريق الملاحظة الشخصية والتجربة، أنه يقوى ملكة معينة؛ وإنما يكون المعول على قيمته التثقيفية في ذاته، إن كانت لاتتم ثقافة المرء بدونه، أو فائدته في الحياة العملية، ونحن نرى من الجدول التالى أن الهندسة، ولو أن قيمتها التهذيبية عشرون، والأشغال اليدوية اثنى عشر فقط ، إلا أن الثانية كعلم مدرسى أفضل من الأولى بكثير، لأن مجموع قيمها الثلاث ثلاث واربعون، في حين أن مجموع الهندسة ثمانية وثلاثون:

العلم	القيمة التهذيبية	النفعية	التثقيفية	المجموع
هندسة	٢٠	١٠	٨	٣٨
جبر	١٩	٩	٨	٣٦
لاتينى	١٧	١٠	١٤	٤١
طبيعة	١٧	١٨	١٢	٤٧
العاب رياضية	١٧	١٢	٧	٣٦
كيمياء	١٣	١٩	١١	٤٣
أشغال يدوية	١٢	٢٣	١٠	٤٥
رسم	١٠	١١	١٥	٣٦ (١)

ولكن على الرغم من اقتناع علماء النفس والتربية الحدثين بفساد المذهبين : مذهب الملكات العقلية ومذهب التهذيب أو انتقال التحسين ، فلا يزال الكثير من أفاضل الناس والعلماء وأساتذة الجامعات والمدرسين يقولون بقول القدماء ، كأن المذهب القديم لا يجاهد في سبيل حفظ كيانه ، كما تجاهد الكائنات الحية في معترك الحياة ، فتبقى منه بقية في عقول الناس، ولو كمجرد آراء فردية بعد أن كانت حقائق علمية مزعومة؛ وقد أجريت مباحث كثيرة في هذا الموضوع ، ووجهت الأسئلة إلى عدد عظيم من رجال التعليم وغيره، نكتفي منها بهذا القدر القليل :

١ـ يقول (توماس) إن رأيي في القيمة التهذيبية للعلوم لم يتغير، ولن يتغير، وأنا موقن من خبرتى الطويلة للتعليم، أن بعض العلوم تشحذ ذهن التلاميذ، وتساعدهم على التفكير الصحيح، وخصوصاً اليونانى واللاتينى ثم الرياضيات (٢)

٢ـ وجه الدكتور (هارفى ويلى) إلى أعضاء مؤتمر الأدبيات الذى انعقد فى (متشيجان)

[1] STARCH—THE ESTIMATED VALUE OF SCHOOL SUBJECTS--SCHOOL & SOCIETY.No5-P. 59-60

[2] THOMAS—OLD FASHION DISCIPLINE—G.OF THE ASS.OF COLLEGIATE ALUMNAE—MAY.1917.P. 588

سنة ١٩٠٩ سؤالا عن أهمية اللغات القديمة ، فوصلته ردود خمسة وثلاثين عضواً: أربعة عشر منها فضل أصحابها دراسة اللاتينى واليونانى ، وأربعة فضلوا اللاتينى ورفضوا اليونانى ، وسبعة عشر تشككوا فى الاثنين .

٣ ـ بينما يقول الأستاذ (بيجلو) إن الرياضيات واللغات أداة التفكير العلمى الصحيح ، يقول الأستاذ (نيف) من جامعة شيكاغو : إنه يأسف للوقت الذى أضاعه فى دراسة اللاتينية واليونانية .

٤ ـ يوصى الكثيرون من رجال الأعمال الحرة بتعلم اللغات القديمة: فالمستر (وليم سلون) من كبار تجار نيويورك يقول بأن اللغات القديمة تؤهل الانسان لأن يكون تاجراً عظيماً ، والمستر (فوستر) عضو مجلس النواب الأمريكى يقول : إنها ضرورية لكل محام ونائب برلمانى .

٥ ـ وكذلك حبذ ثلاثمائة من أعضاء مؤتمر الآداب ، الذى عقد بجامعة برنستون سنة ١٩١٧ دراسة اللغات القديمة وآدابها . ولكنا مع هذا كله يكفى أن نقول مع الأستاذ (ستارش) إن الآراء الفردية لاقيمة لها فى موضوع علمى كهذا ، لأن آراء الناس عامة والذين لم يدرسوا الفلك على الخصوص ، عن شكل الأرض لن تغير من شكل الأرض الحقيقى ، وإن هذ النوع من الاستدلال فى القضايا العلمية لمن الخطورة بمكان .

٦ ـ وليس المدرسون بأقل تأثراً من العامة بمذهب التهذيب ، فقد سأل (ثورندايك) مائة مدرس عن ترتيب العلوم حسب قيمتها التهذيبية فى نظرهم ، فقال ثمانية منهم: الفلسفة ، وعشرة: الانشاء الانجليزى ، وستة عشر: الرياضة ، وسبعة: الالعاب الرياضية ؛ وهو يغتفر لهم هذا بقوله إن المدارس ما دامت تدار بالآراء الفردية ، فرأى جماعة من المدرسين أفضل من رى مدرس واحد (وإن كانت كلها تخالف العلم) على أن هذه الآراء كلها يظهر فيها التحيز الشنيع ، لأن كل مدرس وضع العلم الذى يدرسه على رأس القائمة .

٧ ـ وتتلخص مزاعم مدرسى اللغات عن قيمة الأجرومية التهذيبية فى أنها : (ا) تهذب العقل (ب) تعد التلاميذ لدراسة اللغات الأخرى (ج) تجعل التلميذ متمكناً من مفردات اللغة (د) تصلح لغة المتعلم (هـ) أنها مفتاح الأبيات .

ونحن وإن كنا نقبل بعض هذه المزاعم فى شىء من التحفظ ، فانا نرفض بتاتاً تقرير لجنة العشرة التى ألفت سنة ١٨٩٣ لدراسة الأجرومية ، القائل بأن فائدة الأجرومية هى فى تقوية التفكير لا فى القراءة والكتابة ، وكذلك المزاعم التى لخصها (برجز) كما يأتى : « إن قواعد اللغة تساعد على ملاحظة أوجه: التشابه ، والتضاد ، ونقد التعاريف من الناحية المنطقية ، والوصول إلى التعاريف الصحيحة ، وتقوية التفكير ، والتعليل ، والحكم ، والتريث فيه ، وتطبيقه فى علوم أخرى

كالرياضات وغير هـذا من المزاعم والدعاوى العريضـة التى لايقول بها أى مدرس حديث من مدرسى اللغات (١)

٨ـ أما العلوم فزاعمهم فيها تتلخص فيما يلى :

(ا) إنها تنمى عادات خاصة عظيمة القيمة كالتفكير والنظام والعمل الدقيق .

(ب) تساعد على تحصيل المعلومات النافعة عن طريق الدراسة المنظمة والتدريب .

(ج) تكسب المبادىء العالية بما تبثه فى نفوس التلاميذ من رغبة فى تلمس مظاهر الطبيعة بأنفسهم والاتصال بها مباشرة .

(د) تساعد على حل المسائل غير العلمية، وتذليل الصعوبات وتحقيق الأغراض السامية .

(هـ) تربى ملكة الذوق وتقدير الجمال وحب الانسجام وإدراك الوحدة والنظام فى الطبيعة.

(و) تقوى التفكير الفلسفى والعلمى .

(ز) وأخيراً تربى الدقة فى الملاحظة والأمانة فى التعبير .

وحكمنا على هذه الدعاوى العريضة هو نفس حكمنا على سابقتها .

ومن الغريب أن يشير بعض نظار المدارس المحترمة فى انجلترا وأمريكا بزيادة حصص اللاتينى، وينفذوا هذه الفكرة بالفعل فى مدارسهم، كما فعل (كلارك) والبعض الآخر يفعل هذا فى الهندسة، لأن هذه العلوم — فى نظرهم — أفضل العلوم، أو لأن دراستها تقوى العقل فى جميع النواحى، وتعود الانسان الصبر والجلد والدقة فى العمل ، حتى قال بعضهم بضرورة تعليم لغة صعبة كالروسية مثلا فى المدارس، لا لقيمتها الفعلية ، وإنما لتهذيبها للعقل كما فعل (بسمارك) ، أو يفضلها على الفرنسية لسهولتها كما فعل (تارفر) ، حتى أساتذة كمبردج العلماء الفطاحل كانوا إلى عهد قريب جداً ينادون بضرورة تدريس اللغات القديمة تدريساً وافياً، لأنها تهذب العقل، ولو كانت الطريقة التى تدرس بها آلية ، ولذلك تجد جامعة كمبردج على رأس الجامعات التى تعنى بتدريس اللغات أكثر من باقى الفروع الأخرى .

وخلاصة هذا البحث: أن أمثال هذه الأقوال وغيرها مما يدين به الكثير من المدرسين والمربين وواضعى البرامج فى مصر، لم يخرج عن حد الزعم، وليس لها أى نصيب من الصحة ، فمن الواجب أن لا تدرس العلوم فى مدارسنا المصرية، أو توضع المناهج محشوة بمختلف المواد، لمجرد اعتقاد واضعى هذه البرامج، ومدرسى هذه العلوم أنها أفضل من سواها لتقوية الملكات العقلية، وتهذيب العقل على وجه العموم، ومن الواجب أن تقدر العلوم لقيمتها العملية أولا، ثم التثقيفية إذا استلزم الأمر ، أما التهذيبية فلا ؟

محمد مظهر سعيد

1] BRIGGS:FORMALENGLISHH GRAMMAR,ASA DiISCIPLINE—TEACHERS COLLEGE RECORD.No. 41